خواطر تاريخية

عدنان الحسني

"مبدعون"

ابن الهيثم وكنيته ابو علي.. العالم البصري ولد في البصرة للعام 354 هجري وتوفي في القاهرة عام 430 هجري عن عمر قارب التاسعة والسبعين هو موسوعة علمية وصناعية وادبية فقد برع في كلا الصنفين من العلوم ولكنه ذاع في علم البصريات والذي يرجع الفضل له في ارساء قواعده الاساسية ومما برع فيه وابدع بالاضافة لما تقدم الموسيقى والفلسفة والمنطق وكان عالما في الطب حيث صنف مصنفاته بمختلف اقسامه وخفاياه الا انه لم يعرف كطبيب ذلك انه لم يمارس الطب الا دراسة رغم براعته ان من اهم انجازته ماحدث له في مصر فقد برهن من خلال النظريات الرياضية والهندسية فعملية ابصار العين تتم من خلال ميكانيكية انعكاس الاشياء وليس من خلال شعاع ينبعث من العين نفسها كما كان متصورا.. يضاف الى هذا انه برهن ان الابصار بالنسبة للاشياء يكون في آن واحد ومن خلال زاوية واحدة وباتجاه متطابق ولا يحدث اي تداخل في مدى الرؤيا او اية ازدواجية وعلته في تفسير ذلك هي ان صور الاشياء تتطابق على الشبكية لكلا العينين بمعنى ان الابصار بالنسبة لشيء ما يكون انعكاسه ساقطا على شبكتي العينين دونما اختلاط او ازدواجية تتطابق صورتا الشيء في العينين فيكون الابصار متطابقا تماما دونما تداخل او تشويه بالنسبة للمعكوس من التصوير. ان ابن الهيثم هو اول من رسم العين بعد دراستها وتشريحها وقد ذكرت ذلك المخطوطات حتى الاوروبيون والغربيون عموما يقرون بذلك فقد اخذوا التسميات التي سماها بن الهيثم للعين حين قسمها واعطى لكل جزء منها اسما، فالقرنية والشبكية والسائل المائي كل تلك الاسماء اسس لها ابن الهيثم فعرفت بعد ذلك بنفس الاسماء ولا يخفى على المتتبع بأن ابن الهيثم قد كرس نفسه للعلوم وابداع فيها وقد الف مؤلفات كانت ومازالت في غاية الاهمية من مقالات ومخطوطات من اهمها "كتاب المناظر" حيث قسمه الى سبع مقالات تدرج فيها عن "كيفية الابصار" الى "كيفية ادراك البصر" وقد جاء علماء البصريات من بعده وفي نفس المجال ضمن الحقبة الحديثة من الزمن حيث توفرت كل الوسائل الدالة والمبرهنة على ما يبرهنون من نظريات فالفائدة من ذلك لا تكاد تخلو من الفائدة الكلية.. ورغم كل الذي اعتمد عليه هؤلاء من ادوات ومباحث قرنوها بعملية تلك الالات والادوات الا انهم اعتمدوا اساسا علي ماذكره ودونه عالمنا البصري وشرحه ووفاه حقه ومما يذكر انه اول من اجرى التجارب حول الة الثقب او ما يعرف بالخزانة المظلمة وقد اكتشف ان الصورة تظهر مقلوبة في داخل هذا الصندوق وبهذا فقد مهد الى ابتكار آلة التصوير وانه سبق الايطاليين بنحو خمسة قرون.

لماذا تسمح بأن يسرق أحدهم رأسك

وسام يوسف

"وجدتها وجدتها".. صاح ارخميدس ورقص فرحا عندما اكتشف "بالصدفة" قانون الطفو وكثافة الأجسام، وكذلك فعل إسحاق نيوتن عندما سقطت تفاحه على رأسه فخرج إلى العالم بقانون الجاذبية. ترى لماذا اختارت التفاحة رأس نيوتن لتسقط عليه دونا عن رؤوس غيره من البشر، هل كان مخظوظا إلى هذا الحد فاختارته التفاحة دونا عن غيره ليكتشف من خلالها أهم قوانين الكون. نيوتن هو الذي اختار التفاحة ليدخلها التاريخ عبر اكتشافه القانون من خلالها وليس العكس، لان كل الأجسام تخضع للجاذبية وتسقط على الأرض لكن التفاحة كانت هي المحظوظة لان الفكرة جاءت نيوتن عندها.

حكي لي احد أصدقائي الفنانين كيف أن الفنان "خالد الرحال" توصل إلى فكرة تصميم نصب الجندي المجهول، عندما كان جالسا في المطعم ينتظر أن يأتيه النادل بطلبه، وإثناء ما هو يبحث عن الفكرة سقط من بين يديه الصحن الذي كان على طاولته، فاخذ يدور على الأرض قبل أن يستقر، وهنا كانت الومظة "الفكرة " التي استغلها الرحال لبناء فكرته من شكل الصحن وهو بين الدوران حول نفسه والاستقرار أرضا، لكي ينفذ احد أشهر النصب في بغداد، فالفضل لا يعود إلى الصحن بالتأكيد بل إلى الفنان، لان الصحون تسقط من بين أيدي جميع البشر. فالفكرة إذا لا تأتي إلا من يبحث عنها، وهي تحتاج إلى جهد ووقت للبحث عنها وإخراجها إلى الضوء. فالفكرة تحتاج شخصا ليكتشفها وليس أنها تختار شخصا لتخرج من خلاله، ليصبح هو صاحبها وهو مالكها. فالفكرة مهما كان حجمها كبيرا أم صغيرا هي ملك من اكتشفها وهي من ضمن ممتلكاته الشخصية ومقتنياته، بالتأكيد هي ليست مثل سيارته أو بيته أو البدله التي يرتديها، لكنها أغلى بكثير فهي قطعه منه.

فالشاعر مثلا يبذل الكثير من الوقت والجهد ويخلق لنفسه جوا خاصا أثناء ألكتابه ليجعل الفكرة تأتيه، وعندما يصل إلى مرحله تجافيه الفكرة فيها فانه يستعين بشاعر اخر لازالت أفكاره غزيرة ليستغل أفكاره لصالحه مقابل المال، أي انه يشتري الأفكار، فالفكرة إذا سلعه بالإمكان شراؤها والتداول بها بين من تعنيهم.

وهناك من الكتاب أيضا من يؤجر افكارة لجهات يكتب لها مقابل المال أي كجزء من لعبه الدعاية والتي تدخل أيضا في باب سوق الأفكار. ومادام للفكرة مالك وللفكرة سعر وتباع وتشترى، فللفكرة أيضا "حرامية"، وفي أي مجتمع لا يحترم ويحفظ حقوق الأفكار، فالأفكار تكون عرضة للسطو والسرقة من قبل الغير، ويختلط الحابل بالنابل، عندها تتوقف هكذا مجتمعات عن خلق الأفكار، ما دامت كل فكرة جديدة دون الاستئذان من صاحبها هي مباحة للاستعمال و للتقليد. تتشابه حينها جميع التفاصيل، فالجرائد تكون متشابهه والفضائيات والإذاعات والأغاني والأحزاب والدعايات وحتى المحلات والبيوت والشوارع. لتصبح ألوان الحياة معدودة بانتظار أفكار وألوان جديدة دون عناء البحث عنها، ولهذا تسمى مجتمعاتنا بالاستهلاكية ليس لأننا نستهلك أنواع البضائع دون أن نصنعها، ولكن لأننا نستهلك الأفكار أيضا بتقليدها، دون عناء البحث عن أفكار جديدة.

فالحصول على شيء ما دون عناء وتعب هو أسهل بالتأكيد، والحصول عليه مجانا هو أكثر سهوله، لاتدع احدهم يسرق أفكارك، لانه إذا سرق احدهم مرة أدمن السرقة واقفل رأسه عن التفكير والخلق.

حديث ليس له أول.. له أخر

قيس مجيد المولي

أتصلت بشركة المطيري كي ترسل لي واحدة من ناقلاتها الخفيفة "البريك داون" لنقل سيارتي الى الطبيب المختص وقطعا سأكون الى جوار السائق وستكون هي محمولة وسيراها ويراني من يمر ، لذلك بدأت بتنظيف ماأستطع منها قبل تحميلها وبدأت بصفحة إعداد نفسي للحديث الذي لابد منه خاصة أن المسافة طويلة وتحتاج الى متعة ما في الحديث الذي سنشترك به كلانا، وما أن قام بإجراءاته ودعاني للجلوس الى جواره شاهدت سلسلة من تلك التي توضع في الرقبة ومعلق فيها صليب وقد علقها على المرآة الأمامية لناقلته ووجدت أن المفتتح قد أستحضرني فقلت له: أنت مسيحي وأنا مسلم فرد علي لافرق كلانا واحد سارعت وقلت له أن الله واحد ورسالاته التي كلف بها رسله واحدة من حيث المبدأ بما تحتوية.

ولكي أترك هذا الحديث الذي لامخرج له قلت له من أين أنت قال من كارلا ، قلت سمعت أن أغلبية العاملين هنا أو كلهم يعملون في الأعمال الخدمية كلهم من كارلا وأنا أكاد أجزم أو إسمح لي أن أقول بأنها مدينة تفتقر الى مقومات الحضارة وقست ذلك على نوعية أبنائها العاملين هنا، فهل هي بهذا الشكل كما يوحى لي، وكيف تصلون اليها بعد وصولكم دلهي بالقطار أم بالسيارة ؟

قال يا أخي في دول عديدة مطار واحد وفي كارلا مطار ثيفانبورا ومطار كالييور ومطار ندوم باشري وفيها أيضا جامعة هالكيت وجامعة مهاتما غاندي وكارلا بونيش وحين أدركت بأنه أدركني بغفوة الطريق سارعت وقلت له أريد أن أرى الفيل والقرود والثعابين فهل أجدها في الشارع قال: لا في الغابات وهي كثيرة جدا تفوق تلك التي رأيتها في الأفلام وحين ذكر الأفلام أغتنمتها فرصة وسألته عن شاشي كابور وراج شيري وراجندر كومار وفلم أم الهند الذي لايعرف عنه شيئا وذكر لي أسماء عديدة من المغنين الجدد والسينمائيين وهو يسرد وأنا أغفو ولمحني وتذكرت نهرو وسألته عنه وقال لي: جواهر لال نهر وقلت له نهرو وجمال عبد الناصر وجوزيف بروز تيتو أسسوا حركة عدم الإنحياز في الخمسينيات وأنهم بذلوا جهودا من أجل السلام العالمي وأعطيته هذا المفتاح وأخذ يسرد علي صفات نهرو الإنسانية ومنها حبه لشعبة وأمانته وبساطته قلت له أين وصلنا: قال دوار الجامعة ولما وجدت ان لابد لي من الصمت إستأذنته بكتاب كان ملقى أمامه وباللغة الإنكليزية وكان رواية "الملاك" لبربارة برادفور.

قلت له هل قرأتها قال نعم وأخذ يلقي علي بعض الجمل التي حفظها من تلك الرواية:

أنا أعطيت النهاية لإبتسامتي
خذ الكراسي كي أستطيع أن أشرب الشاي

قبل الذهاب الى العشاء أعطي المرآة وقتا إضافيا،الخطوات كلما كانت بطيئة وبوقت كانت أفضل. بهدوء الملاك مسرور دعنا نؤجل ضحكاتنا للسنة القادمة إستأذنته أن يتوقف بعد ان رغبت بإعادة إسم صاحبة الرواية لكنه فأجائي وأخبرني أن ما ذكره هي أجزاء من قصيدة له وأنه مغرم بالأدب الإنكليزي والأميركي ويمقت وبدون سبب الأدب الألماني وذكرته بهيرمان هيسة ولم أعد أغفو ولم أفاجئه بأي سؤال لأن لديه الكثير الذي به أنساني الطريق صحيح ياأخي جونسون .. صحيح لم تكن كارلا مدينة عمال الخدمات الذين يفدون الى دول الخليج بل مدينة الجمال والمعرفة والتمدن قلت له وهو يقود السيارة،

–هات يدك لنتصافح

ومد كلتي يديه وصافحني حينها إرتطمت ناقلته البريك داون بسيارة أخرى، وأبتسم وتصافحنا من جديد

*موقع كتابات.

ألحرّيات ألفرديّة*

احمد زيدان

الحرّيّة "Liberty" هي قيمة شاملة تحوي عدّة استقلاليّات "Independences"، بداية بالإستقلاليّة الفسيولوجية التي تستهلّها رأس الجنين منذ المهد، و لعل هذه الرأس بالتحديد هي التي ستنتزع آخر الإستقلاليّات لنيل حياة الحرّيّة حتى اللحد: الإستقلاليّة الفكريّة.

فالإنسان ينمو، و ينفش ريش التبعيّة باطّراد بحاسّة غريزيّة نحو البقاء متوطدة في كل عاقل: الحرّيّة. و لا غبار على ذلك لدى كل الكائنات.

يكتسب الفرد استقلاليّات جديدة باطّراد مع مرور الزمن، و تزيد عمق و اتساع استقلاليّاته القديمة، الفرد المتعدّدة، بل و تحتدّ رغبته فيهم و تشتدّ مطلبه عن سواهم؛ ليكتسب ثاني ما يكتسب، بعد الإستقلاليّة الفسيولوجيّة، الإستقلاليّة العقليّة، أي يكون عقله كاملًا قادرًا على التمييز، لتؤهله فيما بعد لمحوريّ حياته: الإستقلاليّة الماديّة، و من ثمّ الفكريّة.

و إن كانت الحرّيّة كقيمة يُشتقّ منها تعريف الفرد نفسه "Individual" في السياق الحضاريّ الحديث، بعد انقشاع أزمنة العبوديّة بلا رجعة، فكأنّ الفرد بنيله للحرّيّة الكاملة يستعيد شجرة تطوّره الحضاريّ عبر ملايين السنين في ستّة عشر عامًا، أو أقل، حتى وقت بلوغه تمامًا. و علاوة على ذلك، فإنّ الإستقلاليّة الماديّة تسبق الفكريّة و لاشك، لأنّ الفرد لا يجنح للفكر إلّا بعد إشباع حاجاته كاملة، و التي توفرها الإستقلاليّة الماديّة، و هو ليس بمعزل في هذا الصدد عن الإنسان البدائيّ الذي لم يستخدم عقله في بناء الحضارة الحديثة إلّا بعد إشباع حاجاته الأوليّة، و لهذا سبقت الحضارة الصناعيّة، الحضارة الزراعيّة و التجاريّة في كلّ أنحاء العالم المتحضّر.

و إنّ كان البلوغ و العقل هما الشرطان الرئيسّان اللذان يقودان للحرّيّة كقيمة أساسيّة و نهائيّة يستكمل بها الفرد كيانه النهائيّ اصطلاحيًا و عمليًا، فإنّ الحرّيّة الفردية "Individual Liberties" للفرد، و لكل فرد على حدة، هي الشرط الرئيسيّ لتوالي الحرّيّات الإقتصاديّة و السياسيّة لمجموعة أفراد، و من هنا سوف نناقش حقوق الفرد الطبيعيّة "Natural Rights" المتمثّلة في حرّيّاته الفرديّة، و التي تنطبق على كل فرد بالغ و عاقل على حدة، بلا أدنى تمييز لأيّ سبب كان. الفرد، و أسرته، هو وحدة المجتمع الرئيسة، و أصغر أقليّة في تركيب المجتمع التشريحيّ، و مجتمع ينبذ، أو يتجاهل، أو يميّز ضد أقلّيّاته هو مجتمع غير حرّ، و حتى إن بدا عكس ذلك.

نتيجة واحدة لما أسهبنا في ذكره الآن: إن استكمل الفرد استقلاليته الفسيولوجيّة، و من ثمّ العقليّة، و من ثمّ الماديّة، و من ثمّ الفكريّة، صار فردًا حرًا، و إن لم، فهو لا يزال عبدًا، و لم يرتق بعد لما ارتقاه أسلافه: الحرّيّة. الحقّ الرئيسيّ "Fundamental Right" لأيّ فرد هو حقّ الحياة "Right to Life"، و من ثمّ تملك ما ينتجه هذا الفرد خلال حياته من منتجات أو أفكار "Property Rights"، و لا شكّ بأنّ الحياة و الملكيّة، الماديّة و الفكريّة، هما أساسان الحقوق الفرديّة جميعًا "Individual Rights" و اللتان تندرج تحتهما كل و أيّ حقّ آخر؛ لأنّ فرد لا يتحكم في حياته، و لا يملك ما ينتجه هو عبد "Slave".

أمّا الفرد الذي له حقّ التحكّم بحياته، و بممتلكاته هو الفرد الحرّ الذي نتطلع إليه من خلال مقالاتنا هذه، و لتكن التزام الفرد بالحقوق الفرديّة هي حماية كافية له ضد كلّ الأفراد الأخرى.

أودّ أن أختم هذه المقدّمة بتعريف الحياة، هذه الحياة التي هي الحق الأوّل لكل فرد على حدة، فالحياة، بحسب الفيلسوفة الأمريكيّة آيان راند، هي عمليّة حفاظ الذاتيّ (قد تكون نفسها غريزة البقاء التي أشرنا عنها قبلذاك) و إستهلال ذاتي للأفعال*.

الحرّيّة و المجتمع:

المجتمع ليست هذه الهالة المقدّسة التي تضفيها لفظته بديهيًا، فهو اصطلاحيًا مجموعة أفراد يعيشون في نفس الزمان و المكان، فهي لا تحمل بين طيّاتها أي أبعاد أخرى، غير توصيف لحالة أفراد يتعايشون مع بعضهم الآخر، و الكلمة نسبيّة جدًا، فقد تصير، مع هذا، المدرسة مجتمعًا، و النادي مجتمعًا، و المصنع مجتمعًا، و المدينة مجتمعًا، و الدولة مجتمعًا، بل و مجازًا تطلق لفظة المجتمع الغربيّ أو المجتمع الدوليّ.

و المجتمع ككلمة لا تكفل، أو تمارس، في ذاتها أيّ تمييز سواء معنويّ أو ماديّ ضد الأقلّيّات، بل الفرد، و هي لا تنتج أو تقدّم أيّة منتجات أو خدمات، بل الفرد، و هي أيضًا لا تشكّل فكرًا و لا توجهًا و لا ثقافة في ذاتها، بل الفرد – أي أنها خاوية من أيّة معنى إلا ما يضفيه عليها الفرد، و لذا فالمجتمع الراقي هو ليس إلّا أفراد منتجون، و المجتمع المتخلف ليس إلّا أفراد خاملون. وبالتالي فقد نستخدم اللفظة مجازًا للدلالة على مجموعة أفراد، و لكن بغير الإشارة إلى ثقافة مشتركة، أو مؤثر واحد، أو محرك جماعي، لأنّ كل فرد هو مصدر ثقافة نفسه، و هو المتحكم في مدى استجابته للمؤثرات من حوله، و لا سيّما في ظلّ هذه الثورة التكنولوجيّة التي نعيشها حاليًا و التي تسهّل على كل فرد التعرّض لمؤثرات لا حصر لها قد تختلف البتّة عن فرد مقابل يحيى في نفس المجتمع، بخلاف المجتمعات البدائيّة الذي كانت السيطرة فيها على الأفكار و المعتقدات شبه مركزيّة. بل و أنّ الفرد نفسه محرك نفسه، نظرًا لغريزة البقاء عن طريق إشباع الحاجات التي تحرك كلّ فرد حرّ.

أودّ عرض استنتاج مهمّ من هذا المقطع الأخير: حضارة العالم تتجه في اتجاه مجتمعات فرديّة "Individualist Societies" يكون فيها الفرد هو النواة الرئيسيّة للمجتمع، يكون الفرد فيها حرًّا داخل مجاله الخاص**، و يمتلك الفرد فيها حياته و إنتاجه الماديّ و الفكريّ، و بحيث تتشكل علاقاته مع الأفراد الآخرين عن طريق التبادل الحرّ المباشر "Voluntary Exchange"، برعاية قانون يساوي بين جميع الأفراد في حقوقهم الفرديّة، أو قد نطلق على هذا النوع من التبادل: التعاون عن طريق المنافسة و التبادل الإراديّ*** و التي ناقشناها في مقالات سابقة. الحرّيّة التي ترسم بانتظام حدود العلاقة ما بين الأفراد داخل مجتمع ما، بشقيها الإيجابي الذي يكفل لكل فرد حرّيّة مطلقة داخل مجاله الخاص**، و السلبيّ الذي يحتم على المؤمن بالحرّيّة احترام المجال الخاصّ للفرد المقابل. فمفهوم "أنا حرّ" له ثنائيّة دلاليّة، ففي المعنى القريب ينطبق المفهوم عليّ شخصيًا، و في المعنى البعيد تنطبق على شخص مقابل لي تمامًا يردّد نفس الكلمة ضمن مجتمع حرّ يتداخل فيه الفرد باختياره الحرّ "Voluntary Contract" مع أفراد آخرين، أو لا يتداخل، تمامًا كدوائر متداخلة "Overlapped Circles"، مركزها النفس "Self" و مجال تداخلها مع دوائر أخرى قد يكون لمصلحة مباشرة ماديّة أو معنويّة "Self Interest"، أو لأيّ سبب آخر تحت مسمّى أيّة قيمة نسبيّة بين الأفراد المتداخلين كالحبّ "Love" أو الصداقة "Friendship"، و أمّا عمق التداخل فهو نابع من إرادة كاملة من هؤلاء الأفراد المتداخلين "Free Will" و لتكن العلاقة بين الأفراد في مجتمع حرّ تكتمل بهذا المفهوم: "حرّيّتك في تحريك قبضة يديك تقف تمامًا عند حدودي****"، و هو المفهوم الواسع الذي سيشكّل فيما بعد طفرة هائلة المدى على السلوك الإنسانيّ، بل و تندرج تحته كافّة القيم الأخلاقيّة للفرد الحرّ "Virtue". فالحرّيّة المطلقة داخل مجاله الخاصّ**، هي نسبيّة جد عند تداخل هذا الفرد مع أفراد آخرين، بمعنى آخر، فأنت حرّ، أوّل ما تكون حرًا، على نفسك، و من ثمّ على مالك أو ممتلكاتك الشخصيّة، و من ثمّ على إبداعك الفكريّ؛ فكونك حرًّا تعني أنه في إمكانك الإنتحار، و لكن ليس في قتل فردًا آخرًا. و كونك حرًّا تعني أنه في إمكانك العمل بدون أجر طواعية، و لكن ليس في إجبار فرد آخر، أو استعباده، للعمل بدون أجر. و كونك حرًّا تعني أيضًا أنه في إمكانك عرض إبداعك الفكريّ بلا حظر للنسخ أو النشر، و لكن ليس في سرقة عمل إبداعيّ آخر محفوظ "Copyrighted".

و الحرّيّة آنذاك تشمل حرّيّة الإعتقاد، التفكير، التعبير، أو الإعلان الجهريّ عن هذه الأفكار و المعتقدات، أو حتى في التبشير على مرأى و مسمع من المجتمع "Preaching"، مادامت لم تصاحبها عنف أو قسر. و قد نستلخص ممّا مضى أنّ المجتمع ليس الذي يمنعك من ممارسة القتل أو الإعتداء على ممتلكات الغير، و لكن حقّ الغير في الحياة و التملك هما اللذان يمنعانك. فحرّيّة أيّ فرد، و كل الأفراد مجتمعين، غير مصونة في مجتمع يتمّ الإعتداء فيه على حرّيّة فرد واحد، أو كل الأفراد مجتمعين. و على الفرد احترام حقّ الآخر في الحرّيّة إذا أراد أن يحيا هو نفسه بحرّيّة. إذن، فالحرّيّة التي تكفل هذا النوع من الرقيّ في التعامل الإنسانيّ بدون عنف و لا إجبار، هي الحرّيّة التي تشعر معها أنك فردًا و ليس عبدًا، و أنك المتحكم الأوّل في مصيرك، و ليس طرفًا خفيًا، بإرادتك الحرّة "Free Will".

*موقع الحوار المتمدن.

هل يتقاعد الرئيس؟

فارس حامد عبد الكريم

العراق بلد الريادة التاريخية بحق، قدم عبر تاريخه الحضاري الطويل المُشرق أثمن الهدايا للبشرية وضرب أروع الأمثلة على قدرات الإنسان في مجال الخلق والابتكار والإبداع. وعلى ذات النهج التاريخي الأصيل، يقدم العراق اليوم للشعوب من جيرانه هدية جديدة، هي الديمقراطية وانتخاب الرئيس وحرية الرأي والتعبير والمعتقد.. إلى أخره من مستلزمات الحياة الحرة الكريمة.

إلا ان هذه الهدية، وبسبب غسيل الدماغ التي تتعرض له الشعوب العربية بشكل يومي من قبل آلة دعائية رسمية ضخمة، قد رفضت.

ومن المعلوم إن الإعلام الرسمي الموجه يخلق وعياً جمعيا هو وعي القطيع، والفرد باعتباره جزءا من ذلك الوعي لا يفكر ولا يتأمل ولا يبدع وهو مسير لا مخير حتى لو قادته مسيرته العمياء تلك إلى لقاء مصيره المحتوم.

والجماهير التي تصفق للاعتقالات غير القانونية ولمظاهر الإعلام العلني والسري والخطابات الحماسية الفارغة وتقرع طبول الحرب وهي تقود ابناءها الى معارك غير متكافئة ومحسومة سلفاً إنما هي تقف على ذات الطابور ولا يعدو ان تكون المسألة مسألة وقت حتى يأتيها دور الموت المجاني.

والشارع السياسي العربي خير نموذج لهذه الصورة، فهو لا يقدر قيمة الانجازات الواقعية القيمة على ارض الواقع، ولا يفرق بين الهزيمة والنصر، إلا بقدر ما توحيه إليه الخطابات الحماسية الرنانة وهو ما برح يستمع إلى نفس الأغاني القديمة التي تقرع طبول الحرب وزغاريد النصر بعد كل هزيمة وان خلفت وراءها الآلاف من الضحايا الأبرياء.

ومن المؤكد ان قادة لا يمكن لهم ان يعترفوا بالهزيمة بروح رياضية لا يمكن لهم ان ينتصروا ابدا في يوم ما، لان الغش والخديعة يفسدان كل شيء حتى ضمير الجماهير وحسها الوطني.

لقد أدرك العراقيون، وهم شعب من الأحرار الأبطال، هذه الحقيقة قبل غيرهم، فرفضوا ان يكونوا وقودا لحرب خاسرة مرة أخرى، ولكنهم صمموا على انقاذ وطنهم عن طريق الحكمة والوعي والالتفاف حول حكومة وطنية منتخبة ستقودهم في النهاية إلى رحاب الأمن والحرية والاستقلال.

لقد ابرز الأعلام العربي الرسمي، ذو التجربة في تحويل الهزائم المرة الى انتصارات وتحويل الانتصارات الباهرة الى هزائم، وباتفاق عربي رسمي نادر، صورة واحدة للعراق الجديد، هي صورة الاحتلال وما نتج عنه ما أسموه بالصراع الطائفي، وأخفى ذلك الأعلام كل الصور الأخرى الجميلة التي رسمها أبناء العراق. فأحداث تاريخية كبرى مثل كتابة الدستور الدائم والاستفتاء عليه وانتخابات مجلس النواب وانتخابات مجالس المحافظات وتحقيق استقلال القضاء وبناء جيش غير مسيس وحرية الانتماء الحزبي وحرية الصحافة والإعلام لا تعني الإعلام العربي الرسمي ولا يلتفت إليها لأنها تتعارض مع خطط غسيل الدماغ ووعي القطيع المدبر.

ورغم ان أعداء العراق الجديد من ملل ونحل مختلفة، فبعض الدول التي ساهمت في هذه المؤامرة المدبرة ضد الشعب العراقي تتمتع بعلاقات تاريخية وراسخة مع الولايات المتحدة الأميركية بينما تسود علاقات الأخرى معها حالة العداء او التشنج او عدم الاستقرار، إلا ان وحدة الهدف قد جمعتهم.

وهكذا امتد شخوص المؤامرة من المغرب العربي الى شرقه والى خليجه، وكان من الصعب إقناع أي عربي واخراجه من حالة اللاوعي او وعي القطيع، وجعله يتأمل ويفكر ويتخذ قراره ويتبنى موقفه بإرادته الحرة تجاه العراق والعراقيين.

وقبل أيام نقلت بعض وسائل الإعلام خبراً مفاده ان فخامة الرئيس العراقي الأستاذ جلال الطالباني يفكر بالتقاعد نهاية هذا العام ليتفرغ لكتابة مذكراته.

في الحقيقة والواقع فان مجرد طرح هذه الفكرة بحد ذاتها، فكرة تقاعد الرئيس، هي انجاز تاريخي بحق وهدية يقدمها أبناء العراق للشعوب العربية وان كانت هذه الفكرة تحرج رؤسائهم وتجعلهم أكثر إصرارا على نهج محاولة اسقاط التجربة العراقية. مما يجعلنا أكثر تمسكا به ودعوته لتأجيل كتابة مذكراته إلى وقت لاحق. فرجل لا يتمسك بالسلطة خير من يتولى السلطة.

لأن الشعوب العربية لا تعرف فكرة تقاعد الرئيس، وإنما هي الآن في محنة الرئاسة بالوراثة، فالرئيس العربي هو في الواقع ملك مبجل وإن سمى نفسه رئيسا للجمهورية فالعبرة في التكييف الدستوري لوضع الرئيس هي بالحقيقة الواقعية لا بالوصف الذي يخلعه الرئيس على نفسه.

والحقيقة هي ان الرئيس العربي الذي يرتدي قناع الجمهورية يملك صلاحيات مطلقة غير قابلة للجدل والمناقشة ومراسيمه الرئاسية هي قوانين نافذة ، وخصومه اما معلقين على المشانق او مغيبين في سجون سرية، وله امتيازات شخصية غير اعتيادية وتحميه وعائلته وحاشيته أجهزة بوليسية ضخمة لم يتسن حتى لملوك القرون الوسطى ان يمتلكوا مثلها.

ثم انه لا يتقاعد الا اذا كان بصدد نقل الرئاسة لنجله.

والمعلوم تاريخياً ان الثورات الجماهيرية الكبرى في التاريخ التي نشأت على أثرها الجمهوريات ، أي حكم الجماهير، إنما نشأت لمواجهة سلطات الملوك المطلقة وتحكمهم برقاب الشعوب بالوراثة، وهكذا نشأت الجمهوريات الحديثة التي يتولى الرئاسة فيها شخص من عامة الشعب عن طريق الانتخابات ولا يتمتع الا بمزايا مؤقتة تفرضها طبيعة صفته التمثيلية للشعب. الا ان التطبيق العربي لهذه الفكرة العظيمة، كان تطبيقا مشوها ليس له علاقة بالاصل الذي نشأت منه الفكرة، بل انه مجرد مسرحية بائسة لخداع الجماهير بأنهم يمتلكون جمهورية بينما هي ملكية وراثية مطلقة في حقيقتها ومعناها.

وبديهي ان ملكية حقيقية دستورية هي أفضل من ملكية مطلقة مستترة بلباس الجمهورية.

والمفارقة في الأمر ان رئيسنا لم يأت الى سدة الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية او أنها انتقلت اليه بالوراثة، إنما هو رئيس دستوري شرعي منتخب نال استحقاقه الشعبي قبل ان ينال استحقاقه الرسمي بعد كفاح طويل مرير ضد الأنظمة الدكتاتورية امتد لسنوات طويلة، ومع ذلك فان مشروعيته الفريدة بين نظرائه من الرؤساء العرب لا تمنعه من التفكير بالتقاعد.

وعلى هذا النحو فان الأزمة بين العراق وجيرانه هي أزمة سببها رئيس يمكن ان يتقاعد ورئيس لا يمكن ان يتقاعد الا اذا كان بصدد نقل الرئاسة بالوراثة.

*موقع الحوار المتمدن.